

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحاضرة الثانية

حال العالم قبل بعثته ﷺ:

المعارف:

١. قيام مكة وبناء البيت.
٢. أحوال العالم العقديّة، والفكرية، والأخلاقية.
٣. أحوال العالم السياسية والاقتصادية.
٤. أحوال العالم الاجتماعية والثقافية.

المهارات الإدراكية:

١. أن تلخص الطالبة مكانة مكة المكرمة في التاريخ.
٢. أن تشرح الطالبة حقيقة المواطنة من خلال معرفة نشأة مكة المكرمة.
٣. أن تحلل الطالبة أوضاع العالم قبل الإسلام.
٤. أن تقارن الطالبة بين حال العالم قبل الإسلام وحالهم في العصر الحديث.
٥. أن تخطط الطالبة لبرنامج يسهم في تقدم المجتمع ورقية.



الجزيرة العربية قبل الاسلام

نشأة مكة:

هاجر إبراهيم (عليه السلام) من العراق إلى الشام، ثم من الشام إلى مصر. وكان يحمل معه في ترحاله هذا رسالة التوحيد^(٣٢). وكانت ترافقه زوجته سارة. وكانت امرأة جميلة. وكان من عادة ملك مصر أن يستأثر لنفسه بكل امرأة جميلة. وشاء الله أن يصرفه عن سارة. وتقلب منه بجارية لتخدمها، وهي هاجر أم إسماعيل (عليه السلام)^(٣٣).

ولما كانت سارة عقيماً، وطعن إبراهيم (عليه السلام) في السن، وبيض شعره، رأت أن تهب له الجارية هاجر ليتزوجها، لعل الله يرزقه منها ذرية صالحاً. وشاء الله أن تلد له هاجر ابنها الأول، فسماه إسماعيل^(٣٤).

واشتدت الغيرة بسارة عندما ولدت هاجر إسماعيل، فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء^(٣٥). فاتخذت هاجر منطقاً له ذيل، فشدت به وسطها، وهربت مع زوجها، وهي تجر ذيلها لتخفي أثرها عن سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند مكان البيت الحرام، عند دوحة فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد^(٣٦)، وليس بها ماء. ووضع عندها جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفل راجعاً، فتبعته

(٣٢) انظر الآية ١٢٠ من النحل: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾. وقصته مع الأصنام ومشركي زمانه مشهورة، حكاه القرآن في عدة سور، مثل: الأنعام (٧٤ - ٨٣)، والأنبياء (٥١ - ٧٠)، ومريم (٤٦ - ٤٨) والبقرة (٢٥٨ - ٢٦٠) والتوبة (٢٦). أما قصته مع التوحيد في مكة فانظرها في سورة إبراهيم، مثل الآيات: ٣٧، ٩٩-١١١، وفي الصافات: ١٠٢.

(٣٣) انظر: البخاري / الفتح (١٣/١٣٤ - ١٣٥/١٣٥ ح / ٣٣٥٨). وانظر تفاصيل قصتها بهذا الصدد عند ابن حجر في شرحه لهذا الحديث، ص ١٣٤ - ١٣٧.

(٣٤) انظر الخبر من رواية ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص ١٢، بإسناد ضعيف، والأزرقي: أخبار مكة، (٥٤/١). وإسناد الأزرقي ضعيف.

(٣٥) ابن حجر: الفتح (١٣/١٤١) شرح الحديث (٣٣٦٤).

(٣٦) روى الأزرقي (أخبار مكة ٥٤/١)، بإسناد ضعيف، أن العماليق كانت تسكن خارجها.

هاجر، فقالت: «يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟» فقالت له ذلك مرارا، وهو لا يلتفت إليها، فقالت له: «آله الذي أمرك بهذا؟»، «قال: نعم»، قالت: «إذن لا يضيعنا». ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يري، استقبل بوجهه مكان البيت، ثم دعا قائلا: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع﴾، حتى بلغ ﴿يشترون﴾ (٣٧).

لم يلبث أن نفذ ما عند هاجر من ماء، فعطشت هي وابنها، فكرهت أن تنظر إلى ابنها وهو يتلوى من العطش، فانطلقت حتى قامت على أقرب جبل منها، وهو الصفا، ثم استقبلت الوادي لتنظر، هل ترى أحدا. فلما لم تر أحدا هبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا، فلم تر أحدا. ففعلت ذلك سبع مرات - وذلك سعي الناس بينها كما قال الرسول ﷺ. وفي نهاية السابعة جاءها الملك جبريل وأخذ يبحث بعقبه أو بجناحه عند موضع زمزم، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه، ثم تغرف منه في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف منه، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم»، أو قال: «لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عينا معينا» (٣٨). فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: «لا تخافوا الضيعة، فإن هذا بيت الله، بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله».

وبينا هي على هذا الحال، مر بهم أهل بيت من قبيلة جرهم البمانية القحطانية. وعندما وجدوا الماء، استأذنوها في النزول عندها، فأذنت لهم بشرط أن لا يكون لهم حق في الماء، فوافقوا، وأرسلوا إلى بقية أهلهم فنزلوا معهم. وشب الغلام بينهم، تعلم اللغة العربية منهم وأعجبهم حين شب،

(٣٧) انظر الآية ٣٧ من سورة إبراهيم.
(٣٨) وفي رواية للبخاري أنه قال: «يرحم الله أم إسماعيل، لولا أنها عجلت لكان زمزم عينا معينا».
انظر: الفتح (١٣/٤٠) ح ٣٣٦٢.

فلما كبر زوجوه امرأة منهم^(٣٩).

وعندما ماتت هاجر جاء إبراهيم، ولم يجد حينها ولده إسماعيل بالبيت، فأخبرته زوجته انه خرج في حاجتهم. وعندما سألها عن عيشتهم، شكت إليه من الشكوى مما يلاقينه من شدة، فأوصاها أن تقرئه السلام وتقول له بأن يغير عتبة بيته. فعندما عاد إسماعيل أخبرته زوجته بالذي حدث، فعرف من وصفها أنه أبوه، وفهم الوصية، وفهم أن العتبة تعني زوجته، فطلقها، وتزوج امرأة أخرى. وبعد فترة من الزمان عاد إبراهيم مرة أخرى فلم يجد إسماعيل بالمنزل، وسأل زوجته عن عيشتهم، فحمدت الله وأثنت عليه بما وسع عليهم في الرزق، فأوصاها بأن تقرئه السلام وتقول له أن يثبت عتبة بيته. فعندما عاد إسماعيل وأخبر بها حدث، عرف أباه وفهم وصيته، فأمسك عليه زوجته.

ثم غاب إبراهيم ما شاء الله، ثم عاد، ووجد ابنته من وراء زمزم يصلح نبلا له تحت دوحة عظيمة قريبة من زمزم. فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد مع الولد. فطلب إبراهيم من ابنته أن يعينه بما أمره الله به، وهو بناء الكعبة على مكان مرتفع قرب زمزم. فكان إبراهيم يبني ويأتيه إسماعيل بالحجارة، حتى ارتفع البناء، فجاءه بحجر المقام فوضعه له فقام عليه. وكانا يقولان وهما بينان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾^(٤٠)،^(٤١). ليست هذه هي المرة الأولى التي يعين فيها إسماعيل أباه على طاعة الله وتنفيذ أمره. فقد ثبت أن إبراهيم عاد إلى مكة عندما شب إسماعيل، وقد أوحى الله إليه مناما أن يذبحه قربانا لله تعالى. فاستشار إبراهيم ابنته إسماعيل في ذلك قائلاً: «يا بني إني أرى في المنام أني اذبحك فانظر ماذا ترى» فأجاب إسماعيل قائلاً: «... يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين»^(٤٢).

(٣٩) وقيل إن زوجته الأولى كانت من العماليق. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية (٢٠٩/١).

(٤٠) البقرة: ١٢٧.

(٤١) روى هذه القصة البخاري / الفتح (١٣/١٤١ - ١٥٢ / ح ٣٣٦٤ وح ٣٣٦٥).

(٤٢) انظر هذه الآيات في قصة الذبح والفداء في سورة: الصافات: ١٠٢ - ١٠٧.

وخرج به إلى منى لتنفيذ أمر ربه. ولما تله للجبين والسكين بيده، ناداه ربه: ﴿...﴾ ان يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا... ﴿ وفداه الله بذبح عظيم ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴿^(٤٣)، أي بكبش أملح كبير، فترك الولد وذبح الكبش. وفاز الوالد والولد برضا الله تعالى^(٤٤).

وعندما فرغ إسماعيل وإبراهيم من بناء البيت، أمر الله نبيه إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾^(٤٥)، فقيل صعد (عليه السلام) جبل أبي قبيس أو الحجر أو الصفا، ونادى باسم الله تعالى قائلا: «أيها الناس! إن ربكم بنى لكم بيتا فحجوه». فأسمع الله نداءه كل مخلوق، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة، فلبى قائلا: «لييك اللهم لييك»^(٤٦).

ودعا إبراهيم وإسماعيل ربهما بما حكاها عنها القرآن الكريم: ﴿ربنا وإبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم﴾^(٤٧). قال الطبري^(٤٨): «وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد ﷺ خاصة، وهي الدعوة التي كان نبينا محمد ﷺ يقول عنها: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى...».

وعاش إسماعيل بجوار البيت الحرام مع أصهاره جرهم إلى أن بعثه الله رسولا إليهم وإلى كافة من بالحجاز من قبيلة العماليق وأهل اليمن^(٤٩). قال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادقا للوعد وكان رسولا

(٤٣) انظر هذه الآيات في قصة الذبح والفداء في سورة: الصافات: ١٠٢ - ١٠٧.

(٤٤) وانظر تفسير الآيات في كتب التفسير، مثل زاد المسير لابن الجوزي (٧١/٧ - ٧٨)، ابن كثير: (٢٢/٧ - ٣٠).

(٤٥) الحج: ٢٧.

(٤٦) انظر تفسير ابن كثير (٤١٠/٥) وهو مضمون ما روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن جبير وغير واحد من السلف، وأوردها ابن جرير (١٠٦/١٧ - ١٠٧) وابن أبي حاتم مطولة كما قال ابن كثير.

(٤٧) البقرة: ١٢٩. وانظر تفسيرها عند الطبري (٨٢/٣ - ٨٨ / شاكرك).

(٤٨) التفسير (٨٢/٣ / شاكرك) وقد رواه أحمد في المستند (١٢٧/٤ - ١٢٨)، والحاكم في المستدرک

(١٧ - ٦١٦/٢) بمثل إسناد أحمد، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي. قلت:

«إسناده حسن لأنه من طريق ابن إسحاق، وهو مدلس وقد صرح بالتحديث».

(٤٩) ابن كثير: البداية (٢٠٩/١)، بدون إسناد، فهو ضعيف.

نبياً^(٥٠) وأنجب اثني عشر ولدا ذكرا. وقد ساهم محمد بن إسحاق، ونقل ذلك عنه ابن كثير^(٥١)، وأولها نابت وقيدار. ونابت هو الذي اختير لأن يكون من آباء دعوة إبراهيم وإسماعيل. واختفت حلقات السلسلة الذهبية فيما بين نابت وعدنان لظروف غامضة غير معروفة. وكان عدد الآباء ما بين نابت وعدنان يقدر بستة آباء، وقد عاشوا جميعا بالحرم المكي. ومع هذا لم تضبط أسماء هؤلاء الآباء الستة. وقد جزم الرسول ﷺ بنسبه إلى عدنان، أما أجداده ما بين عدنان وإسماعيل فمختلف فيهم^(٥٢).

وعندما مات إسماعيل دفن مع أمه في الحجر، وكان عمره مائة وسبعا وثلاثين سنة. وبتنسب كل عرب الحجاز إلى ولديه نابت وقيدار^(٥٣). هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن عهد إبراهيم (عليه السلام) كان في القرن التاسع عشر قبل الميلاد^(٥٤).

تعدد بناء الكعبة

المرّة الأولى: عمارة الملائكة، كما روى الأزرقى^(٥٥).
المرّة الثانية: عمارة آدم (عليه السلام)، كما روى البيهقي^(٥٦) وغيره^(٥٧).
المرّة الثالثة: عمارة أولاد آدم (عليه السلام)، كما روى الأزرقى^(٥٨) وغيره^(٥٩).

- (٥٠) مريم: ٥٤. وانظر كذلك في أمر نبوته - مثلا - : البقرة: ١٣٦. النساء: ١٦٣.
(٥١) البداية (٢٠٨/١) - بدون إسناد. فهو إذن خبر ضعيف.
(٥٢) انظر الأقوال في هذا عند ابن عساکر: تاريخ دمشق، قسم السيرة، ص ٣٦ - ٥٣، الذهبي: السيرة النبوية، ص ١٨ - ٢٢، وغيرهما.
(٥٣) ابن كثير: البداية (٢١٠/١). وعن أخبار العرب العاربة والمستعربة، وتاريخ مكة إلى زمان الرسول ﷺ، انظر: البداية (١٧١/٢ - ٢٧١)، ولولا خشية الإطالة للخصنا ذلك.
(٥٤) انظر: أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ط ٢، العربي للإعلان والنشر، دمشق، ١٩٧٣م، ص ٢٣٢، ومحمد محمد حسن شراب: المعالم الأثرية في السنة والسيرة، ص ٦١.
(٥٥) أخبار مكة (٢/١)، وانظر: السهيلي: الروض (٢٢٢/١ - ٢٣)، ابن حجر: الفتح (١٤٤/١٣)، البيهقي: الدلائل (٤٤/٢).
(٥٦) دلائل النبوة (٤٥/٢)، وانظر: ابن حجر: الفتح (١٤٤/١٣).
(٥٧) انظر في هذا: السيرة الشامية (١٧١/١)، وقال الشامي: «رواه ابن أبي حاتم وابن جرير والطبراني موقوفاً، والأزرقى وأبو الشيخ في العظمة وابن عساکر عن ابن عباس. وفي مكان آخر (٢٤٢/١) - (٤٣) أورد عدة أخبار وأحاديث في حج آدم. وانظر ابن كثير: التفسير (٢٥٩/١).
(٥٨) أخبار مكة (٨/١).
(٥٩) انظر: السيرة الشامية (١٧٢/١) حيث ذكر أن من رواه ابن المنذر.

عن وهب بن منبه . وذكر السهيلي^(٦١) أن الذي بناها شيث بن آدم (عليه السلام).

المرّة الرابعة: عمارة إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) التي ذكرناها، وجزم ابن كثير^(٦٢) بأن هذا كان أول بناء. قال: «ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل (عليه السلام)، ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿... مكان البيت...﴾ فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله، المقرر في قدرته، المعظم عند الأنبياء موضعه، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم». وقال الشامي^(٦٣) معلقاً على كلام ابن كثير هذا: .. وفيه نظر لما ذكر من الآثار السابقة واللاحقة.

المرّة الخامسة والسادسة: عمارة العماليق ثم جرهم، كما نقل الشامي^(٦٤) من رواية ابن أبي شيبه وإسحاق بن راهويه في مسنده، وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن علي (رضي الله عنه). قال السهيلي^(٦٥): «وقد قيل إنه بني في أيام جرهم مرة أو مرتين؛ لأن السيل كان قد صدع خائطه، ولم يكن ذلك بنياناً على نحو ما قدمنا، إنما كان إصلاحاً لما وهي منه، وجداراً: بني بينه وبين السيل، بناه عامر الجارود، وقد تقدم هذا الخبر».

المرّة السابعة: عمارة قصي بن كلاب - جد النبي (عليه السلام) - قال الشامي^(٦٥): «نقله الزبير بن بكار في كتاب النسب، وجزم به الإمام أبو إسحاق الماوردي في الأحكام السلطانية^(٦٦)».

المرّة الثامنة: عمارة قريش، حين كان للرسول (عليه السلام) خمسة وثلاثون عاماً، كما سيأتي ذكره هنا في المبحث الخاص بمشاركة الرسول (عليه السلام) في بناء الكعبة.

(٦٠) الروض الأنف (٢٢١/١) وعنده أنها المرّة الأولى.

(٦١) البداية والنهاية (١٧٨/١).

(٦٢) سبل الهدى والرشاد (١٧٢/١).

(٦٣) المرجع نفسه (١٩٢/١).

(٦٤) الروض الأنف (٢٢٢/١).

(٦٥) سبل الهدى والرشاد (١٩٢/١).

(٦٦) ص ١٤٣، طبعة دار السعادة، ١٣٢٧ هـ.

المرة التاسعة: عمارة عبدالله بن الزبير، كما روى الشيخان^(٦٧) وغيرهما. وسيأتي ذكره في الفصل الأول، المبحث رقم (٢٣) - الأسلوب الثامن من أساليب المشركين في الصد عن سبيل الله - آخر فقرة منه، ص ١٧٧. المرة العاشرة: عمارة الحجاج بن يوسف بأمر عبد الملك بن مروان الأموي، كما روى الإمام مسلم^(٦٨). وعندما شكك عبد الملك في سماع ابن الزبير من خالته عائشة (رضي الله عنها) حديث الرسول ﷺ: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال: بكفر - هدمتها وجعلت لها غلقاً وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر»، أكد له الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة - المعروف بالقباع وأخو عمر بن أبي ربيعة الشاعر المشهور - انه سمعه منها، فقدم على نقضه وإعادته^(٦٩).

وروي أن الرشيد العباسي عزم على نقضها وإعادتها كما بناها ابن الزبير، فقال له مالك بن أنس: أنشدك الله يأمر المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك، لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره، فتذهب هيئته من قلوب الناس. فصرفه عن رأيه فيه^(٧٠).

دلت الآيات القرآنية التي نزلت في شأن بناء الكعبة والأحاديث الصحيحة التي رواها البخاري وغيره على أن أول من بنى الكعبة هو إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام). وقد كان مكان البيت ربوة عالية مشرفة على ما حولها، معروفة للملائكة، ولمن سبق من الأنبياء وبقعة مشرفة معظمة من قديم الزمان حتى جاء الخليل فأسس قواعده وبناه.

أما الروايات التي تقول ببناء الكعبة قبل هذا فأغلبها موقوفة على بعض الصحابة أو التابعين، ورواها أهل التاريخ والسير كالأزرقي والفاكهي وبعض

(٦٧) انظر الشامي: سبل الهدى والرشاد (١/١٩٢ - ١٩٦).

(٦٨) صحيحه (٢/٩٧١ ح/١٣٣٣/٤٠٢).

(٦٩) مسلم (٢/٩٧٢ ح/١٣٣٣/٤٠٣)، السهيلي (١/٢٢٢)، الشامي (١/١٩٦).

(٧٠) قال ابن كثير إن الذي أراد نقضها هو المهدي بن المنصور. انظر: البداية والنهاية (١/١٨٠) وقال السهيلي (١/٢٢٤) إن أباجعفر المنصور وابنه محمد المهدي زادا في إتقان المسجد وتحسين هيئته. وقال الدكتور البوطي: «هذا وفي شرح التووي على مسلم والفتح على البخاري، أن الذي هم ينقض الكعبة هو الرشيد، وذكر في عيون الأثر [١/٥٣] وإعلام الساجد أنه أبوجعفر المنصور، ومعلوم أن مالكا - يرحمه الله - عاصر كلا من المنصور وهارون الرشيد، فلاحتمال قائم».

المفسرين والمحدثين الذين لا يلتزمون إخراج الروايات الصحيحة أو الحسنة. وقد مر بك قول ابن كثير: «ولم يجيء في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل (عليه السلام)».

ويقول أبوشهبة^(٧١) بعد ترجيحه كلام ابن كثير: «ولا ينافي ما رجحناه وذهبنا إليه ما روي: انه ما من نبي إلا وقد حج البيت» مارواه أبو يعلى في مسنده بسنده عن ابن عباس، قال: حج رسول الله ﷺ، فلما أتى وادي عسفان قال: «ياأبا بكر، أي وادٍ هذا؟» قال: هذا وادي عسفان، قال: «لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكرات^(٧٢) لهم حمر، خطنهم^(٧٣) الليف، وأزرهم العباء^(٧٤)، وأرديتهم النهار^(٧٥) يحجون البيت العتيق»، وما رواه الإمام أحمد في مسنده بسنده عن ابن عباس، قال: لما مر النبي ﷺ بوادي عسفان حين حج قال: «ياأبا بكر، أي وادٍ هذا؟» قال: وادي عسفان، قال: لقد مر به هود وصالح (عليهما السلام) على بكرات حمر، خطنهما الليف، وأزرهم العباء، وأرديتهم النهار، يلون يحجون البيت العتيق». إسناده حسن. لأن المقصود الحج إلى محله، وبقصدته المعروفة، وإن لم يكن ثم بناء^(٧٦).

عمل ابن الزبير وغيره في عمارة الكعبة:

عندما قرر ابن الزبير تجديد الكعبة، باشر المسلمون نقضها حتى بلغوا بها الأرض، فأقاموا أعمدة من حولها وأرخوا عليها الستور، ثم باشروا في رفع بنائها، وزادوا فيها الأذرع الستة التي أنقصتها منه قريش، وزادوا في طولها إلى الساء عشرة أذرع، وجعلوا لها بايين من الشرق والغرب، أحدهما

(٧١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/١٢٦).

(٧٢) بكرات: جمع بكرة، وهي الناقة الفتية القوية.

(٧٣) خطم: جمع خطوم، وهو الزمام الذي تشد به الناقة.

(٧٤) أزر: جمع إزار، وهو ما يستر به أسفل الجسم من الوسط.

(٧٥) أردية: جمع رداء، وهو ما يوضع على الكتفين ويستر به النصف الأعلى. والنار جمع نمر، وهو الكساء المخطط.

(٧٦) ابن كثير: البداية والنهاية (١/١).

يدخل منه والآخر يخرج منه. وذلك استناداً إلى قول الرسول ﷺ: الذي رواه الشيخان: «يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم»، أوفي معنى هذا.

وذكر الأزرقى^(٧٧) أن إبراهيم (عليه السلام) جعل طول بناء الكعبة في السماء تسعة أذرع وطولها في الأرض اثنين وثلاثين ذراعاً وعرضها في الأرض اثنين وعشرين ذراعاً، وكانت بغير سقف. وحكى السهيلي^(٧٨) أن طولها في السماء كان تسع أذرع من عهد إسماعيل، فلما بنتها قريش قبل الإسلام زادوا فيها تسع أذرع، فكانت ثمانية عشر ذراعاً، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يصعد إليها إلا في درج أو سلم، وقد ذكرنا أن أول من عمل لها غلقاً هو تبع، ثم لما بناها ابن الزبير زاد فيها تسع أذرع، فكانت سبعاً وعشرين ذراعاً، وعلى ذلك هي الآن.

لم يكن للمسجد الحرام سور. وكانت تحيط به الدور من كل الجهات، وعندما رأى ابن الخطاب أن المسجد قد ضاق بالحجاج والزوار، اشترى الدور التي حوله من أهلها فوسعه وجعل له سوراً على قامة الرجل، وأناره^(٧٩). وعندما رأى عثمان (رضي الله عنه) أن المسجد أيضاً قد ضاق بالحجاج والمعتمرين، اشترى دوراً أخرى فوسع بها الحرم^(٨٠). وكذلك فعل ابن الزبير^(٨١).

ولم يزل الخلفاء والأمراء من ذلك الزمان يتعهدون الحرم بالتوسعة^(٨٢) إلى زماننا هذا الذي يشهد فيه أضخم توسعة على يد الحكومة السعودية.

(٧٧) تاريخ مكة (٦٤/١) وانظر: الزركشي: اعلام الساجد (ص ٤٦)، وابن حجر: الفتح (١٤٩/١٣).

(٧٨) الروض الأنف (٢٢١/١).

(٧٩) الأزرقى (٦٨/٢ - ٦٩)؛ السهيلي: الروض (٢٢٤/١).

(٨٠) الأزرقى (٦٩/٢) السهيلي: الروض (٢٢٤/١).

(٨١) الأزرقى (٦٩/٢ - ٧٠).

(٨٢) انظر: الأزرقى (٧١/٢) وما بعدها، فقد ذكر أولئك الذين وسعوا الحرم إلى زمانه.

مقام إبراهيم (عليه السلام)

المقام: هو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم (عليه السلام) لما ارتفع البناء عن قامته كما ذكرنا، وقد تركت قدماء أثراً فيه، وظل هذا الأثر إلى أول الإسلام، غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم. وفي هذا يقول أبو طالب: وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة * على قدميه حافيا غير ناعل^(٨٣).

وقد روي أن المقام كان ملصقاً بحائط الكعبة، على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فأخره عن البيت قليلاً توسعة على الطائفين والمصلين عند المقام، ووافق الصحابة على عمل الفاروق^(٨٤).

وقد سبق وأن وافق الله تعالى على قوله لرسول الله ﷺ: «لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى»، فأنزل الله تعالى «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»^{(٨٥)(٨٦)}.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن إبراهيم (عليه السلام) بنى أيضاً المسجد الأقصى، وقيل إن يعقوب (عليه السلام) هو الذي أسسه. وقد كان بين البناءين أربعون عاماً، كما قال الرسول ﷺ^(٨٧).

(٨٣) ابن كثير: البداية والنهاية (١/١٧٨ - ١٧٩) والتفسير (١/٢٤٦).
(٨٤) أحمد: فضائل الصحابة (١/٣٢٤) من طريق عبدالرزاق، بإسناد صحيح إلى عطاء؛ انظر المصنف (٤٨/٥) مثله، وله شاهد صحيح عن مجاهد، أخرجه عبدالرزاق؛ الأزرقى أخبار مكة (٢/٣٣).
قال الحافظ في الفتح (٨/١٦٩) ط. السلفية بالقاهرة: «... وأخرج البيهقي عن عائشة مثله. بسند قوي ولفظه أن المقام كان في زمن النبي ﷺ وفي زمن أبي بكر ملصقاً بالبيت ثم أخره عمر... وقد أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عيينة قال: وكان المقام في سبعم البيت في عهد رسول الله ﷺ فحوله عمر فجاء سيل فذهب به فرده عمر إليه. قال سفيان لا أدري أكان لاصقاً بالبيت أم لا». وانظر أحمد: الفضائل (١/٣٢٥) حاشية المحقق. وقال ابن كثير في التفسير (١/٢٤٦) بعد إيراد أثر عطاء ومجاهد عند عبدالرزاق وأثر عائشة عند البيهقي: «وهذا إسناد صحيح مع ما تقدم» وقال بعد إيراد أثر سفيان عند ابن أبي حاتم: «فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرناه».

(٨٥) البقرة: ١٢٥.

(٨٦) رواه البخاري (١/٥٠٤)، وأحمد: المسند (١/٢٣) وفي فضائل الصحابة (١/٣١٥ - ١٦/ح ٤٣٥) و(١/٣٤٢) ح ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥ بإسناد صحيح.

(٨٧) البخاري/الفتح (١٣/٢١٨ - ٢١٩/ح ٣٤٢٥)؛ مسلم (١/٣٧٠/ح ٥٢٠).

أما الحديث الذي رواه النسائي^(٨٨)، وفيه أن سليمان بن داود (عليهما السلام) هو الذي بنى المسجد الأقصى، فالقصد بالبناء هنا هو التجديد كما ذكر السيوطي^(٨٩) وابن القيم^(٩٠) وابن حجر^(٩١) واستعمال البناء بمعنى التجديد وارد في اللغة العربية، كما قال الدكتور أبوشهبة^(٩٢).

الفصل الأول : أهم الأحداث التاريخية من قبل البعثة حتى نزول الوحي

المبحث الأول : الحضارات السائدة قبل البعثة ودياناتها

أولاً: الإمبراطورية الرومانية

كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية تعرف بالإمبراطورية البيزنطية، فكانت تحكم دول اليونان والبلقان وآسيا وسوريا وفلسطين وحوض البحر المتوسط بأسره، ومصر وكل إفريقيا الشمالية، وكانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت دولة ظالمة مارست الظلم والجور والتعسف على الشعوب التي حكمتها، وضاعفت عليها الضرائب، وكثرت الاضطرابات والثورات، وكانت حياتهم العامة قائمة على كل أنواع اللهو واللعب والطرب والترف.

أما مصر فكانت عرضة للاضطهاد الديني والاستبداد السياسي، واتخذها البيزنطيون شاة حلوبا يحسنون حلبيها، ويسئون علفيها.

وأما سوريا فقد كثرت فيهم المظالم والرقيق، ولا يعتمدون في قيادة الشعب إلا على القوة والقهر الشديد، وكان الحكم حكم الغرباء، الذي لا يشعر بأي عطف على الشعب المحكوم، وكثيرا ما كان السوريون يبيعون أبناءهم ليوفوا ما كان عليهم من ديون^(١).

كان المجتمع الروماني مليئا بالتناقض والاضطرابات، وقد جاء تصويره في كتاب «الحضارة ماضيها وحاضرها» كالتالي:

«كان هناك تناقض هائل في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين، فقد رسخت النزعة الدينية في أذهانهم، وعمت الرهبانية، وشاعت في طول البلاد وعرضها. وأصبح الرجل العادي في البلاد يتدخل في الأبحاث الدينية العميقة، والجدل البيزنطي، ويتشغل بها، كما طبعت الحياة العادية العامة بطابع المذهب الباطني، ولكن نرى هؤلاء - في جانب آخر - حريصين أشد الحرص على كل نوع من أنواع اللهو واللعب، والطرب والترف، فقد كانت هناك ميادين رياضية واسعة تتسع لجلوس ثمانين ألف شخص، يتفرجون فيها على مصارعات بين الرجال والرجال أحياناً، وبين الرجال والسباع أحياناً أخرى، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين: لون أزرق ولون أخضر، لقد كانوا يحبون الجمال، ويعشقون العنف والهمجية، وكانت ألعابهم دموية ضارية أكثر الأحيان، وكانت عقوبتهم فظيعة تقشعر منها الجلود. وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارة عن المجون والترف، والمؤامرات والمجاملات الزائفة، والقبايح والعادات السيئة»

ثانياً: الإمبراطورية الفارسية:

كانت الإمبراطورية الفارسية تعرف بالدولة الفارسية أو الكسروية، وهي أكبر وأعظم من الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وقد كثرت فيها الديانات المنحرفة كالزرادشتية والمانيّة التي أسسها ماني في أوائل القرن الثالث الميلادي، ثم ظهرت المزدكية في أوائل القرن الخامس الميلادي التي دعت إلى الإباحية في كل شيء؛ مما أدى إلى انتشار ثورات الفلاحين وتزايد الهياكل للقصور فكانوا يقبضون أو يأسرون النساء ويستولون على الأملاك والعقارات فأصبحت الأرض والمزارع والدور كأن لم تسكن من قبل.

وكان ملوكهم يحكمون بالوراثة، ويضعون أنفسهم فوق بني آدم، لأنهم يعتبرون أنفسهم من نسل الآلهة، وأصبحت موارد البلاد ملكاً لهؤلاء الملوك يتصرفون فيها ببذخ لا يتصور، ويعيشون عيش الهائم، حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم أو دخلوا الأديرة والمعابد فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية، وكانوا وقوداً حقيراً في حروب طاحنة مدمرة قامت في فترات من التاريخ دامت سنين طوال بين الفرس والروم لا مصلحة للشعوب فيها إلا تنفيذ نزوات ورغبات الملوك (١).

ثالثاً: الهند:

اتفقت كلمة المؤرخين على أن أحط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعا وسياسة - ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي، فانتشرت الخلاعة حتى في المعابد؛ لأن الدين أعطاها لونا من القدس والتعبد، وكانت المرأة لا قيمة لها ولا عصمة، وانتشرت عادة إحراق المرأة المتوفي زوجها، وامتازت الهند عن أقطار العالم بالتفاوت الفاحش بين طبقات الشعب، وكان ذلك تابعا لقانون مدني سياسي ديني وضعه المشرعون الهنديون الذين كانت لهم صفة دينية، وأصبح هو القانون العام في المجتمع ودستور حياتهم، وكانت الهند في حالة فوضى وتمزق، انتشرت فيها الإمارات التي اندلعت بينها الحروب الطاحنة، وكانت بعيدة عن أحداث عالمها في عزلة واضحة يسيطر عليها التزمم والتطرف في العادات والتقاليد، والتفاوت الطبقي والتعصب الدموي والسلافي، وقد تحدث مؤرخ هندي - أستاذ للتاريخ في إحدى جامعات الهند - عن عصر سابق لدخول الإسلام في الهند فقال: «كان أهل الهند منقطعين عن الدنيا، منطوين على أنفسهم، لا خبرة عندهم بالأوضاع العالمية، وهذا الجهل أضعف موقفهم، فنشأ فيهم الجمود، وعمت فيهم أمارات الانحطاط والتدهور، كان الأدب في هذه الفترة بلا روح، وهكذا كان الشأن في الفن

المعماري، والتصوير، والفنون الجميلة الأخرى»(٢).
«وكان المجتمع الهندي راكداً جامداً، كان هناك تفاوت عظيم بين الطبقات وتمييز معيب بين أسرة وأسرة، وكانوا لا يسمحون بزواج الأيامى، ويشددون على أنفسهم في أمور الطعام والشراب، أما المنبوذون فكانوا يعيشون مضطرين خارج بلدهم ومدينتهم»(١).
كان تقسيم سكان الهند إلى أربع طبقات:
طبقة الكهنة ورجال الدين، وهم (البراهمة).
ورجال الحرب والجنديّة وهم (شترى).
ورجال الفلاحة والتجارة وهم (ويش).
ورجال الخدمة وهم (شودر) وهم أحط الطبقات، فقد خلقهم خالق الكون من أرجله -كما يزعمون-، وليس لهم إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث وإراحتها.
وقد منح هذا القانون البراهمة مركزاً ومكانة لا يشاركون فيها أحد، والبرهمي رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله، ولا يجوز فرض جباية عليه، ولا يعاقب بالقتل في حال من الأحوال، أما (شودر) فليس لهم أن يقتنوا مالا، أو يدخروا كترًا، أو يجالسوا برهمنياً، أو يمسوه بيدهم، أو يتعلموا الكتب المقدسة(٢).

رابعاً: أحوال العالم الدينية قبل البعثة المحمدية:

كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام العظيم تعيش مرحلة من أحط مراحل التاريخ البشري في شؤونها الدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وتعاني من فوضى عامة في كافة شؤون حياتها، وهيمن المنهج الجاهلي على العقائد والأفكار والتصورات والنفوس، وأصبح الجهل والهوى والانحلال والفجور، والتجبر والتعسف من أبرز ملامح المنهج الجاهلي المهيم على دنيا الناس.

وضاع تأثير الديانات السماوية على الحياة أو كاد بسبب ما أصابها من التبدل والتحريف والتغيير الذي جعلها تفقد أهميتها باعتبارها رسالة الله إلى خلقه، وانشغل أهلها بالصراعات العقديّة النظرية التي كان سببها دخول الأفكار البشرية، والتصورات الفاسدة على هذه الأديان، حتى أدى إلى الحروب الطاحنة بينهم، ومن بقي منهم لم يحرف ولم يبدل قليل نادر، وأثر الابتعاد عن دنيا الناس ودخل في حياة الخلوة والعزلة طمعاً في النجاة بنفسه يأساً من الإصلاح، ووصل الفساد إلى جميع الأصناف والأجناس البشرية، ودخل في جميع المجالات بلا استثناء.

ففي الجانب الديني تجد الناس إما أن ارتدوا عن الدين أو خرجوا منه أو لم يدخلوا فيه أصلاً، أو وقعوا في تحريف الديانات السماوية وتبديلها، وأما في الجانب التشريعي، فإن الناس نبذوا شريعة الله وراءهم ظهرياً، واخترعوا من عند أنفسهم قوانين، وشرائع لم يأذن بها الله، تصطدم مع العقل وتختلف مع الفطرة.

وتزعم هذا الفساد زعماء الشعوب والأمم من القادة والرهبان والقساوسة والدهاقين والملوك، وأصبح العالم في ظلام دامس وليل بهيم، وانحرف عظيم عن منهج الله سبحانه وتعالى.
فاليهودية: أصبحت مجموعة من الطقوس والتقاليد لا روح فيها ولا حياة. وتأثرت بعقائد الأمم التي جاورتها واحتكت بها، والتي وقعت تحت سيطرتها فأخذت كثيراً من عاداتها وتقاليدها الوثنية الجاهلية، وقد اعترف بذلك مؤرخو اليهود(١) فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: «إن سخط

الأنبياء و غضبهم على عبادة الأوثان يدل على أن عبادة الأوثان والالهة، كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائيليين، ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد اعتقدوا معتقدات خرافية وشركية.

إن التلمود أيضاً يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود».

إن المجتمع اليهودي قبل البعثة المحمدية قد وصل إلى الانحطاط العقلي وفساد الذوق الديني، فإذا طالعت تلمود بابل الذي يبالغ اليهود في تقديسه، والذي كان متداولاً بين اليهود في القرن السادس المسيحي، تجد فيه نماذج غريبة من خفة العقل وسخف القول، والاجترار على الله، والعبث بالحقائق والتلاعب بالدين والعقل.

أما المسيحية: فقد امتحنت بتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وراء السحب الكثيفة، واندلعت الحروب بين النصارى في الشام والعراق، وبين نصارى مصر حول حقيقة المسيح وطبيعته، وتحولت البيوت والمدارس والكنائس إلى معسكرات متنافسة وظهرت الوثنية في المجتمع المسيحي في مظاهر مختلفة وألوان شتى، فقد جاء في تاريخ المسيحية في ضوء العلم المعاصر:

«لقد انتهت الوثنية، ولكنها لم تلق إبادة كاملة، بل إنها تغلغت في النفوس واستمر كل شيء فيها باسم المسيحية وفي ستارها، فالذين تجردوا عن ألهمهم وأبطالهم وتخلوا عنهم أخذوا شهيداً من شهدائهم ولقبوه بأوصاف الآلهة، ثم صنعوا له تماثلاً، وهكذا انتقل هذا الشرك وعبادة الأصنام إلى هؤلاء الشهداء المحليين، ولم ينته هذا القرن حتى عمت فيه عبادة الشهداء والأولياء، وتكونت عقيدة جديدة، وهي أن الأولياء يحملون صفات الألوهية، وصار هؤلاء الأولياء والقديسون خلقاً وسيطاً بين الله والإنسان يحمل صفة الألوهية على أساس عقائد الأريسيين، وأصبحوا رمزا لقداسة القرون الوسطى وورعها وطهرها، وغيّرت أسماء الأعياد الوثنية بأسماء جديدة، حتى تحول في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح»، وجاء في دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة: «تغلغل الاعتقاد بأن الإله الواحد مركب من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره، منذ ربيع القرن الرابع الأخير، ودامت كعقيدة رسمية مسلّمة، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحي، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرها إلا في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي».

لقد اندلعت الحروب بين النصارى وكفّر بعضهم بعضاً، وقتل بعضهم بعضاً، وانشغل النصارى ببعضهم عن محاربة الفساد وإصلاح الحال ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح البشرية. وأما المجوس: فقد عرفوا من قديم الزمان بعبادة العناصر الطبيعية، أعظمها النار، وانتشرت بيوت النار في طول البلاد وعرضها، وعكفوا على عبادتها وبنوا لها معابد وهيكل، وكانت لها آداب وشرائع دقيقة داخل المعابد، أما خارجها فكان أتباعها أحراراً يسرون على هواهم لا فرق بينهم وبين من لا دين له.

ويصف المؤرخ الدنماركي طبقة رؤساء الدين ووظائفهم عند المجوس في كتابه «إيران في عهد الساسانيين» فيقول: «كان واجباً على هؤلاء الموظفين أن يعبدوا الشمس أربع مرات في اليوم، ويضاف إلى ذلك عبادة القمر والنار والماء، وكانوا مكلفين بأدعية خاصة، عند النوم والانتباه

والاغتسال ولبس الزنار والأكل والعطس وحلق الشعر وتقليم الأظافر، وقضاء الحاجة وإيقاد السرج، وكانوا مأمورين بالأداء الناري تنطفئ، وألا تمس النار والماء بعضها بعضاً، وألا يدعوا المعدن يصدأ لأن المعادن عندهم مقدسة».

وكان أهل إيران يستقبلون في صلاتهم النار، وقد حلف (يزدجرد) آخر ملوك الساسانيين - بالشمس مرة وقال: «أحلف بالشمس التي هي الإله الأكبر». وقد دان المجوس بالثنوية في كل عصر وأصبح ذلك شعاراً لهم، فأمنوا بالهين اثنين، أحدهما النور أو إله الخير والثاني الظلام أو إله الشر.

أما البوذية: في الهند وآسيا الوسطى، فقد تحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت.

أما البرهمية: دين الهند الأصلي، فقد امتازت بكثرة المعبودات والآلهة، وقد بلغت أوجها في القرن السادس الميلادي، ولا شك أن الديانتين الهندوكية والبوذية وثنيتان سواء بسواء، لقد كانت الدنيا المعمورة من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادي غارقة في الوثنية، وكأنما كانت المسيحية واليهودية والبوذية والبرهمية تتسابق في تعظيم الأوثان وتقديسها، وكانت كخيل رهان تجري في حلبة واحدة.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى عموم هذا الفساد لجميع الأجناس وجميع المجالات بلا استثناء فقد قال صلى الله عليه وسلم ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل ما نحلته عبداً حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب». والحديث يشير إلى انحراف البشرية في جوانب متعددة كالشرك بالله، ونبذ شريعته وفساد المصلحين من حملة الأديان السماوية ومما أتتهم للقوم على ضلالهم.

المبحث الثاني: أصول العرب وحضارتهم

أولاً: أصول العرب:

قسم المؤرخون أصول العرب إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي انحدروا منها:

١- العرب البائدة: وهي قبائل عاد، وثمود، والعمالقة، وطسّم، وجديس، وأمّيم، وجُرهم وحضرموت ومن يتصل بهم، وهذه درست معالمها وضمحلّت من الوجود قبل الإسلام وكان لهم ملوك امتد ملكهم إلى الشام ومصر.

٢- العرب العاربة: وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرُب بن يشْجُب بن قحطان وتسمى بالعرب القحطانية ويعرفون بعرب الجنوب ومنهم ملوك اليمن، ومملكة معين، وسبأ وحمير.

٣- العرب العدنانية: نسبة إلى عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهم المعروفون بالعرب المستعربة، أي الذين دخل عليهم دم ليس عربياً، ثم تم اندماج بين هذا الدم وبين العرب، وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج الجديد. وهؤلاء هم عرب الشمال، موطنهم الأصلي مكة، وهم إسماعيل عليه السلام وأبناؤه، والجراهمة الذين تعلم منهم

إسماعيل عليه السلام العربية، وصاهرهم، ونشأ أولاده عربًا مثلهم، ومن أهم ذرية إسماعيل (عدنان) جد النبي صلى الله عليه وسلم الأعلى، ومن عدنان كانت قبائل العرب وبطونها فقد جاء بعد عدنان ابنه معد، ثم نزار، ثم جاء بعده ولداه مضر وربيعة. أما ربيعة بن نزار فقد نزل من انحدر من صلبه شرقا، فقامت عبد القيس في البحرين، وحنيفة في اليمامة، وبنو بكر بن وائل ما بين البحرين واليمامة، وعبرت تغلب الفرات فأقامت في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، وسكنت تميم في بادية البصرة. أما فرع مضر: فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة، وأقامت ثقيف في الطائف، واستوطنت سائر هوازن شرقي مكة، وسكنت أسد شرقي تيماء إلى غربي الكوفة، وسكنت ذبيان وعبس من تيماء إلى حوران وتقسيم العرب إلى عدنانية وقحطانية هو ما عليه جمهرة علماء الأنساب وغيرهم من العلماء. ومن العلماء من يرى أن العرب: عدنانية، وقحطانية ينتسبون إلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

وقد ترجم البخاري في صحيحه لذلك فقال: باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام، وذكر في ذلك حديثًا عن سلمة قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم يتناضلون بالسهم، فقال: «ارموا بني إسماعيل، وأنا مع بني فلان» -لأحد الفريقين- فأمسكوا بأيديهم. فقال: «ما لكم؟» قالوا: كيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ فقال: «ارموا وأنا معكم كلكم» (١) وفي بعض الروايات «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً».

قال البخاري: وأسلم بن أقصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة. يعني: أن خزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم (٢). ووُلد الرسول صلى الله عليه وسلم من مضر، وقد أخرج البخاري عن كليب بن وائل قال: حدثني ربيعة النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت أبي سلمة قال: «قلت لها: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أكان من مضر؟ فقالت: فممن كان إلا من مضر؟ من بني النضر بن كنانة» (٣). وكانت قريش قد انحدرت من كنانة وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة وانقسمت قريش إلى قبائل شتى من أشهرها جمح وسهم وعددي ومخزوم وتيم وزهرة وبطون قصي بن كلاب، وهي عبد الدار بن قصي وأسد بن عبد العزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي، وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم. وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم (٤).

قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» (٥).

ثانيًا: حضارات الجزيرة العربية

نشأت من قديم الزمان ببلاد العرب حضارات أصيلة، ومدنيات عريقة من أشهرها:
١- حضارة سبأ باليمن: وقد أشار القرآن الكريم إليها، ففي اليمن استفادوا من مياه الأمطار والسيول التي كانت تضيع في الرمال، وتنحدر إلى البحار، فأقاموا الخزانات والسدود بطرق هندسية متطورة، وأشهر هذه السدود (سد مأرب) واستفادوا بمياهها في الزروع المتنوعة، والحدائق ذات الأشجار الزكية، والثمار الشهية، قال عز شأنه: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ

جَنَّتَانِ عَنِ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ - فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ - ذَلِكَ
جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ [سبأ: ١٥-١٧].

ودل القرآن الكريم على وجود قرى متصلة في الزمن الماضي ما بين اليمن، إلى بلاد الحجاز، إلى بلاد الشام، وأن قوافل التجارة والمسافرين كانوا يخرجون من اليمن إلى بلاد الشام، فلا يعدمون ظلاً، ولا ماء، ولا طعاماً، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ - فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) [سبأ: ١٨، ١٩].

٢- حضارة عاد بالأحقاف: وكانوا في شمال حضرموت وهم الذين أرسل الله إليهم نبي الله هودا عليه السلام، وكانوا أصحاب بيوت مشيدة، ومصانع متعددة، وجنات،

وزروع وعيون (١) قال تعالى: (كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ - إِذْ قَالَ لَهُمُ أَحُوهُمْ هُوذٌ أَلَّا تَتَّقُونَ - إِيَّاكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ - فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا - وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ - أَتُنبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبَثُونَ - وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ - وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ - فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا - وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ - أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ - وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ) [الشعراء: ١٢٣-١٣٤].

٣- حضارة ثمود بالحجاز: دل القرآن الكريم على وجود حضارة في بلاد الحجر، وأشار إلى ما كانوا يتمتعون به من القدرة على نحت البيوت في الجبال، وعلى ما كان يوجد في بلادهم من عيون وبساتين وزروع (٢)، قال تعالى: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ - إِذْ قَالَ لَهُمُ أَحُوهُمْ صَالِحُ أَلَّا تَتَّقُونَ - إِيَّاكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ - فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا - وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ - أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ - فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ - وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ - وَتَنجُونَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي نُبِيتُ بِأَرْسَالِهَا فِي نَارِهَا - فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) [الشعراء: ١٤١-١٥٠].

وقال فيهم أيضاً: (وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَا فِي الْأَرْضِ تَنجِدُونَ مِنْ سُهُولِهَا فُصُورًا وَتَنجُونَ الْجِبَالَ الَّتِي نُبِيتُ بِأَرْسَالِهَا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ) [الأعراف: ٧٤].
لقد زال كل ذلك من زمن طويل، ولم يبق إلا آثار ورسوم وأطلال، فقد اضمحلت القرى والمدن، وتخربت الدور والقصور، ونضبت العيون، وجفت الأشجار وأصبحت البساتين والزروع أرضاً جُرُزاً (٣).

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبه (١/٥٠). (٢) نفس المصدر (١/٥١).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبه (١/٥١).

المبحث الثالث: الأحوال الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية عند العرب أولاً: الحالة الدينية

ابتليت الأمة العربية بتخلف ديني شديد، ووثنية سخيطة لا مثيل لها، وانحرافات خلقية، واجتماعية، وفوضى سياسية، وتشريعية، ومن ثم قل شأنهم وصاروا يعيشون على هامش التاريخ، ولا يتعدون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدولة الفارسية أو الرومانية، وقد

امتألت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء والأجداد واتباع ما كانوا عليه مهما يكن فيه من الزيف والانحراف والضلال ومن ثم عبدوا الأصنام، فكان لكل قبيلة صنم، فكان لهذيل بن مدركة: سواع، ولكلب: ود، ولمذحج: يغوث، ولخيوان: يعوق، ولحمير: نسر، وكانت خزاعة وقريش تعبد إسافاً ونائلة، وكانت مناة على ساحل البحر، تعظمها العرب كافة والأوس والخزرج خاصة، وكانت اللات في ثقيف، وكانت العزى فوق ذات عرق، وكانت أعظم الأصنام عند قريش (١). وإلى جانب هذه الأصنام الرئيسية يوجد عدد لا يحصى كثرة من الأصنام الصغيرة والتي يسهل نقلها في أسفارهم ووضعها في بيوتهم. روى البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً آخر هو أخيرُ منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جُثوة من تراب، ثم جننا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به».

وقد حالت هذه الوثنية السخيفة بين العرب، وبين معرفة الله وتعظيمه وتوقيره والإيمان به، وباليوم الآخر وإن زعموا أنها لا تعدو أن تكون وسائل بينهم وبين الله، وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وجميع جوانب حياتهم وضعف توقير الله في نفوسهم قال تعالى: (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) [الأنعام: ٣٦]. أما البقية الباقية من دين إبراهيم عليه السلام فقد أصابها التحريف، والتغيير والتبديل، فصار الحج موسماً للمفاخرة والمنافرة، والمباهاة وانحرفت بقايا المعتقدات الحنيفية عن حقيقتها وألصقت بها من الخرافات والأساطير الشيء الكثير. وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء الذين يرفضون عبادة الأصنام، وما يتعلق بها من الأحكام والنحائر وغيرها، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل الميتة والدم، وكان يقول:

أربياً واحداً أم ألفَ رب؟ ... أدين إذا تقسّمت الأمور؟
عزلتُ اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبورُ
فلا العزى أدين ولا ابنتها ... ولا صني بني عمرو أزورُ
ولا غنماً أدين وكان ربا ... لنا في الدهر، إذا حلني يسيرُ
إلى أن قال:

ولكن أعبد الرحمن ربي ... ليغفر ذنبي الربُّ الغفور

وممن كان يدين بشريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، قُس بن ساعدة الإيادي، فقد كان خطيباً، حكيماً، عاقلاً، له نباهة، وفضل، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بشر بالنبى صلى الله عليه وسلم فقد روى أبو نعيم في دلائل النبوة عن ابن عباس قال: «إن قس بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عكاظ) فقال في خطبته: سيعلم حق من هذا الوجه وأشار بيده إلى مكة، قالوا: وما هذا الحق؟ قال: رجل من ولد لؤي بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش الأبد، ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أني أعيث إلى مبعثه لكنت أول من يسعى إليه» وقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ومات قبل البعثة (١).

ومما كان ينشده من شعره:
 في الذاهبين الأولي... ن من القرون لنا بصائر
 لما رأيت موارد... للموت ليس لها مصادر
 ورأيت قومي نحوها... يمضي الأصاغر والأكابر
 لا يرجع الماضي إلي... ولا من الباقي غابر
 أيقنت أني لا محاة... لة حيث صار القوم صائر
 كان بعض العرب قد تنصر، وبعضهم دخل في اليهودية، أما الأغلبية فكانت تعبد الأوثان
 والأصنام.

ثانياً: الحالة السياسية:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو وحضر، وكان النظام السائد بينهم هو النظام
 القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب ومملكة الحيرة
 في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة في الشمال الغربي، فلم تنصهر الجماعة فيما في شعب
 واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة.

والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب) ووحدة الجماعة، وفي ظل
 هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن
 بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي
 والاجتماعي.

وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية وصفاته، وخصائصه من شجاعة ومروءة، وكرم
 ونحوها، ولرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية، فالأدبية أهمها: احترامه وتبجيله، والاستجابة
 لأمره، والنزول على حكمه وقضائه. وأما المادية فقد كان له في كل غنيمة تغنمها (المرباع) وهو ريع
 الغنيمة، (والصفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة (والنشيطه) وهي ما
 أصيب من مال العدو قبل اللقاء (والفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، وقد
 أجمل الشاعر العربي ذلك بقوله:

لك المرباع فينا، والصفايا... وحكمك، والنشيطه، والفضول (٢)

ومقابل هذه الحقوق، واجبات ومسئوليات، فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم
 الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات.

والنظام القبلي تسود فيه الحرية، فقد نشأ العربي في جو طليق، وفي بيئة طليقة، ومن ثم كانت
 الحرية من أخص خصائص العرب، ويعشقونها ويأبون الضيم والذل وكل فرد في القبيلة ينتصر
 لها، ويشيد بمفاخرها، وأيامها، وينتصر لكل أفرادها محققاً أو مبطلاً، حتى صار من مبادئهم:
 «انصر أخاك ظالماً، أو مظلوماً».

وكان شاعرهم يقول:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم... في النائبات على ما قال برهانا

والفرد في القبيلة تبع للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة أنه قد تذوب شخصيته في

شخصيتها، قال دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت، وإن ترشد غزية أرشد (٣)

وكانت كل قبيلة من القبائل العربية لها شخصيتها السياسية، وهي بهذه الشخصية كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، وهذه الشخصية أيضاً كانت تشن الحرب عليها، ولعل من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربية، حلف الفضول (حلف المطيبين) (١).

وكانت الحروب بين القبائل على قدم وساق ومن أشهر هذه الحروب حرب الفجار (٢) وكان عدا هذه الحروب الكبرى- تقع إغارات فردية بين القبائل تكون أسبابها شخصية أحياناً، أو طلب العيش أحياناً أخرى، إذ كان رزق بعض القبائل في كثير من الأحيان في حد سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقض عليها قبيلة أخرى في ساعة من ليل أو نهار لتسلب أنعامها ومؤنّها، وتدع ديارها خاوية كأن لم تسكن بالأمس

ثالثاً: الحالة الاقتصادية:

يغلب على الجزيرة العربية الصحاري الواسعة الممتدة، وهذا ما جعلها تخلو من الزراعة إلا في أطرافها وخاصة في اليمن والشام، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة كان يغلب على البادية رعي الإبل والغنم، وكانت القبائل تنتقل بحثاً عن مواقع الكلأ، وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلا في مضارب خيامهم.

وأما الصناعة فكانوا أبعد الأمم عنها، وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة استعانوا برجل قبلي نجا من السفينة التي غرقت بجدة ثم أصبح مقيماً في مكة.

وإذا كانت الجزيرة العربية قد حرمت من نعمتي الزراعة والصناعة، فإن موقعها الاستراتيجي بين إفريقيا وشرق آسيا جعلها مؤهلة لأن تحتل مركزاً متقدماً في التجارة الدولية آنذاك. وكان الذين يمارسون التجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن، ولا سيما أهل مكة فقد كان لهم مركز ممتاز في التجارة، وكان لهم بحكم كونهم أهل الحرم منزلة في نفوس العرب فلا يعرضون لهم، ولا لتجارتهم بسوء، وقد امتن الله عليهم بذلك في القرآن الكريم: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمُونًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)

[العنكبوت: ٦٧]

وكانت لقريش رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، يذهبون فيها آمنين بينما الناس يتخطفون من حولهم، هذا عدا الرحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام، قال تعالى: (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ - فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ - الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) [قريش: ١-٤].

وكانت القوافل تحمل الطيب والبخور، والصمغ، واللبن، والتوابل والتمور، والروائح العطرية، والأخشاب الزكية، والعاج، والأبنوس، والخرز، والجلود، والبرود اليمينية والأنسجة الحريرية، والأسلحة وغيرها مما يوجد في شبه الجزيرة، أو يكون مستورداً من خارجها، ثم تذهب به إلى الشام وغيرها ثم تعود محملة بالقمح، والحبوب، والزبيب، والزيتون، والمنسوجات الشامية وغيرها.

واشتهر اليمينيون بالتجارة. وكان نشاطهم في البروفي البحار، فسافروا إلى سواحل إفريقيا وإلى الهند واندونيسيا، وسومطرة وغيرها من بلاد آسيا. وجزر المحيط الهندي أو البحر العربي كما يسمى، وقد كان لهم فضل كبير بعد اعتناقهم الإسلام، في نشره في هذه الأقطار. وكان التعامل بالربا منتشراً في الجزيرة العربية، ولعل هذا الداء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود.

وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم وكانت نسبة الربا في بعض الأحيان إلى أكثر من مائة في المائة. وكان للعرب أسواق مشهورة: عكاظ، ومجنته، وذو المجاز، ويذكر بعض المؤلفين في أخبار مكة أن العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منه إلى مجنة بعد مضي عشرين يوماً من ذي القعدة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا إلى ذي المجاز فلبثوا فيها ثمانين ليال، ثم يذهبون إلى عرفة، وكانوا لا يتبايعون في عرفة ولا أيام منى حتى جاء الإسلام فأباح لهم ذلك، قال تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمُشْعَرِ الْأَحْرَامِ وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ) [البقرة: ١٩٨].

وقد استمرت هذه الأسواق في الإسلام إلى حين من الدهر ثم دَرَسَتْ، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت أسواقاً للأدب والشعر والخطابة يجتمع فيها فحول الشعراء ومصارع الخطباء، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم، ومفاخرهم، ومآثرهم، وبذلك كانت ثروة كبرى للغة، والأدب، إلى جانب كونها ثروة تجارية.

رابعاً: الحالة الاجتماعية:

هيمنت التقاليد والأعراف على حياة العرب، وأصبحت لهم قوانين عرفية فيما يتعلق بالأحساب والأنساب، وعلاقة القبائل ببعضها والأفراد كذلك، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعية فيما يأتي:

- ١- الاعتزاز الذي لا حد له بالأنساب، والأحساب، والتفاخر بهما: فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، ولما جاء الإسلام قضى على ذلك وبين لهم أن التفاضل إنما هو بالتقوى والعمل الصالح.
- ٢- الاعتزاز بالكلمة، وسلطانها، لا سيما الشعر

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البليغ، وكان شعرهم سجل مفاخرهم، وأحسابهم، وأنسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم، فلا تعجب إذا كان نجم فيهم الخطباء المصارع، والشعراء الفطاحل، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة، والبيت يخفضها، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيء فرحهم بشاعر ينسج في القبيلة.

٣- المرأة في المجتمع العربي:

كانت المرأة عند كثير من القبائل كسقط المتاع، فقد كانت تورث، وكان الابن الأكبر للزوج من غيرها من حقه أن يتزوجها بعد وفاة أبيه، أو يعرضها عن النكاح، حتى حَرَّمَ الإسلام ذلك، وكان الابن يتزوج امرأة أبيه (١) فنزل قول الله تعالى: (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا) [النساء: ٢٢].

وكانت العرب تحرم نكاح الأصول كالأمهات، والفروع كالبنت، وفروع الأب كالأخوات، والطبقة الأولى من فروع الجد كالخالات والعمات (٢).

وكانوا لا يورثون البنات ولا النساء ولا الصبيان، ولا يورثون إلا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور

الخيال، وبقي حرمان النساء والصغار من الميراث عرفاً معمولاً به عندهم إلى أن توفي أوس بن ثابت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك بنتين كانت بهما دمامة، وابناً صغيراً، فجاء ابنا عمه وهما عصبته فأخذوا ميراثه كله، فقالت امرأته لهما: تزوجا البنتين، فأبيا ذلك لدمامتهما، فأنت رسول الله فقالت: يا رسول الله توفي أوس وترك ابناً صغيراً وابنتين، فجاء ابنا عمه سويد وعرفطة فأخذوا ميراثه، فقلت لهما: تزوجا ابنتيه، فأبيا، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تحركا في الميراث شيئاً» (٣)

، ونزل قوله تعالى: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا) [النساء: ٧].

وكان العرب يُعَيِّرُونَ بالبنيات: لأن البنت لا تخرج في الغزو، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرجال، وإذا ما سبيت اتخذت للوطء تتداولها الأيدي لذلك، بل ربما أكرهت على احتراف البغاء، ليضم سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله، وقد كانت العرب تبيع ذلك، وقد كان هذا يورث الهم والحزن والخجل للأب عندما تولد له بنت، وقد حدثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت فقال تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ - يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلْأَسَاءُ مَا يَحْكُمُونَ) [النحل: ٥٨-٥٩].

وكثيراً ما كانوا يختارون دسها في التراب، ووأدها حية، ولا ذنب لها إلا أنها أنثى(١)؛ ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشنيعة قال تعالى: (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ - بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) [التكوير: ٨-٩].

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر أو خشية الفقر فجاء الإسلام وحرّم ذلك قال تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) [الأنعام: ١٥١].
وقال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) [الإسراء: ٣١].

وكانت بعض القبائل لا تتد البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشنعاء كزيد بن عمرو بن نفيل(١).

وكانت بعض القبائل تحترم المرأة وتأخذ رأيها في الزواج، وكانت المرأة العربية الحرة تأنف أن تفتش لغير زوجها وحليلها، وكانت تتسم بالشجاعة وتتبع المحاربين وتشجعهم، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضرورة، وكانت المرأة البدوية العربية تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها، وتغزل الوبر والصوف وتنسج الثياب، والبرود، والأكسية، مع التصون والتعفف(٢).

٤- النكاح:

تعارف العرب على أنواع النكاح، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، وقد ذكرت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح اليوم؛ يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها(٣): أرسلني إلى فلان فاستبضعي.

منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط (١) ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيها فإذا حملت ووضعت، ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لها القافة (٢) ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتا (٣) به ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية إلا نكاح الناس اليوم» (٤).

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى لم تذكرها عائشة رضي الله عنها كنكاح الخدن وهو في قوله تعالى: (وَلَا تُتَّخَذَاتِ أَخْدَانٍ) كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم، وهو إلى الزنا أقرب منه إلى النكاح، وكنكاح المتعة وهو النكاح المعين بوقت، ونكاح البذل: كان الرجل في الجاهلية يقول للرجل: انزل لي على امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك (٥).

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشغار وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق. وكانوا يحلون الجمع بين الأختين في النكاح، وكانوا يبيحون للرجل أن يجمع في عصمته من الزوجات ما شاء دون التقيد بعدد، وكان الذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر من أن ينالهم العدد (١). وجاء الإسلام ومنهم من له العشرة من النساء والأكثر، والأقل، فقصر ذلك على أربع إن علم أنه يستطيع الإنفاق عليهن، والعدل بينهن، فإن خاف عدم العدل فليكتف بواحدة، وما كانوا في الجاهلية يلتزمون العدل بين الزوجات، وكانوا يسيئون عشرتهن، ويهضمون حقوقهن حتى جاء الإسلام فأنصفهن، وأوصى بالإحسان إليهن في العشرة، وقرر لهن حقوقاً ما كن يحلمن بها (٢).

٥- الطلاق:

كانوا يمارسون الطلاق، ولم يكن للطلاق عندهم عدد محدد، فكان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها، ثم يطلقها ثم يراجعها هكذا أبداً، وبقي هذا الأمر معمولاً به في صدر الإسلام (٣) إلى أن أنزل الله تبارك وتعالى قوله: (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ) [البقرة: ٢٢٩]. فقيده الإسلام عدد الطلقات، وأعطى للزوج فرصة لتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرتين، فإن طلق الثالثة فقد انقطعت عروة النكاح، ولا تحل له إلا بعد زوج آخر، ففي الكتاب الكريم (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ) [البقرة: ٢٣٠].

ومما كان يلحق بالطلاق في التحريم الظهار، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنت علي كظهر أمي، وكان تحريماً مؤبداً حتى جاء الإسلام، فوسمه بأنه منكر من القول وزور، وجعل للزوج مخرجاً منه، وذلك بالكفارة (١) قال تعالى: (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّنْ نَسَأْتُمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْتُهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ. وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ

نَسَاءِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَم تُوَعِّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ - فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ [المجادلة: ٢-٤].

٦- الحروب، والسطو، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب، فهم لا يبالون بشن الحروب وإزهاق الأرواح في سبيل الدفاع عن المثل الاجتماعية التي تعارفوا عليها وإن كانت لا تستحق التقدير، وقد روى لنا التاريخ سلسلة من أيام العرب في الجاهلية مما يدل على تمكن الروح الحربية من نفوس العرب وغلبتها على التعقل والتفكير، فمن تلك الأيام مثلاً يوم البسوس، وقد قامت الحرب فيه بين بكر وتغلب بسبب ناقة للجرمي وهو جار للبسوس بنت منقذ خالة جساس بن مرة، وقد كان كليب سيد تغلب قد حذى لإبله مكاناً خاصاً به فرأى فيه هذه الناقة فرماها فجزع الجرمي وجزعت البسوس، فلما رأى ذلك جساس تحين الفرصة لقتل كليب فقتله فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدة أربعين سنة (٢).

وكذلك يوم داحس والغبراء، وقد كان سببه سباقاً أقيم بين داحس وهو فرس لقيس ابن زهير، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر فأوعز هذا إلى رجل ليقف في الوادي فإن رأى داحسا قد سبق يرده وقد فعل ذلك فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء فسبقت الغبراء، وحصل بعد ذلك القتل والأخذ بالثأر، وقامت الحرب بين قبيلتي عبس وذبيان (١).

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج في الجاهلية وهم أبناء عم، حيث إن الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزدي، واستمرت الحروب بينهم وكان آخر أيامهم (بُعَاث) وذلك أن حلفاء الأوس من اليهود جددوا عهدهم معهم على النصر، وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يذكها اليهود حتى يضعفوا القبيلتين فتكون لهم السيادة الدائمة، واستعان كل فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت نهايته لصالح الأوس (٢). وكانت بعض القبائل تسطو وتغير بغية نهب الأموال وسي الأحرار وبيعهم، كزيد ابن حارثة فقد كان عربياً حراً، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسياً حراً، وقد قضى الإسلام على ذلك حتى كانت تسيير المرأة والرجل من صنعاء إلى حضرموت لا يخافان إلا الله والذئب على أغنامهما (٣).

٧- العلم والقراءة والكتابة:

لم يكن العرب أهل كتاب وعلم كاليهود والنصارى، بل كان يغلب عليهم الجهل والامية، والتقليد والجمود على القديم - وإن كان باطلاً - وكانت أمة العرب لا تكتب ولا تحسب وهذه هي الصفة التي كانت غالبية عليها، وكان فيهم قليل ممن يكتب ويقرأ ومع أميتهم وعدم اتساع معارفهم فقد كانوا يشتهرون بالذكاء، والفتنة، والألمعية، ولطف المشاعر، وإرهاق الحس، وحسن الاستعداد، والتهيؤ لقبول العلم والمعرفة، والتوجيه الرشيد؛ ولذلك لما جاء الإسلام صاروا علماء، حكماء، فقهاء، وزالت عنهم الأمية، وأصبح العلم والمعرفة من أخص خصائصهم، وكان فيهم من مهربي علم قص الأثر، وهو القيافة، وكان فيهم أطباء كالحارث بن كلدة، وكان طيهم مبنياً على التجارب التي اكتسبوها من الحياة والبيئة (١).

خامساً: الحالة الأخلاقية:

كانت أخلاق العرب قد ساءت وأولعوا بالخمروالقمار، وشاعت فيهم الغارات وقطع الطريق على القوافل، والعصبية والظلم، وسفك الدماء، والأخذ بالثأر، واغتصاب الأموال، وأكل مال اليتامى، والتعامل بالربا، والسرقة والزنا، ومما ينبغي أن يعلم أن الزنا إنما كان في الإماء وأصحاب الريات من البغايا، ويندر أن يكون في الحرائر. وليس أدل على هذا من أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخذ البيعة على النساء بعد الفتح: «على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين» «قالت السيدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: أوتزني الحرة(٢)؟!». وليس معنى هذا أنهم كانوا كلهم على هذا، لا. لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون ولا يشربون الخمر، ولا يسفكون الدماء ولا يظلمون، ويتخرجون من أكل أموال اليتامى، ويتزهون عن التعامل بالربا(٣) وكانت فيهم سمات وخصال من الخير كثيرة أهلتهم لحمل راية الإسلام ومن تلك الخصال والسمات:

١- الذكاء والفتنة:

فقد كانت قلوبهم صافية، لم تدخلها تلك الفلسفات والأساطير والخرافات التي يصعب إزالتها، كما في الشعوب الهندية والرومانية والفارسية، فكأن قلوبهم كانت تعد لحمل أعظم رسالة في الوجود وهي دعوة الإسلام الخالدة؛ ولهذا كانوا أحفظ شعب عرف في ذلك الزمن، وقد وجه الإسلام قريحة الحفظ والذكاء إلى حفظ الدين وحمائته، فكانت قواهم الفكرية، ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية. وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب كلامية معقدة(١).

واتساع لغتهم دليل على قوة حفظهم وذاكرتهم، فإذا كان للعسل ثمانون اسمًا وللثعلب مائتان وللأسد خمسمائة، فإن للجمل ألفاً، وكذا السيف، وللداهية نحو أربعة آلاف اسم، ولا شك أن استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلى ذاكرة قوية حاضرة وقادة(٢).

وقد بلغ بهم الذكاء والفتنة إلى الفهم بالإشارة فضلاً عن العبارة، والأمثلة على ذلك كثيرة(٣).

٢- أهل كرم وسخاء:

كان هذا الخلق متأصلاً في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه، أو ناقته، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان بل كان يطعم الوحش، والطير، وكرم حاتم الطائي سارت به الركبان، وضربت به الأمثال(٤).

٣- أهل شجاعة ومروءة ونجدة:

كانوا يتمادحون بالموت قتلاً، ويتهاجون بالموت على الفراش قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفًا، ولكن قطعاً بأطراف الرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف:

وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طلّ منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل

وكان العرب لا يقدمون شيئاً على العزوصيانة العرض، وحماية الحرم، واسترخصوا في سبيل

ذلك نفوسهم قال عنتره:

بَكَرَتْ تخوفني الحُتوف كأنني ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنية منهل ... لا بد أن أُسقى بكأس المنهل
فأقني حياءك لا أبا لك واعلي ... أي امرؤ سأموت إن لم أقتل (١)
وقال عنتره:

لا تسقني ماء الحياة بذلة ... بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أطيب منزل (٢)

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامة ومروءة، فكانوا يأبون أن ينتهز القوي الضعيف، أو العاجز،
أو المرأة أو الشيخ، وكانوا إذا استنجد بهم أحد أنجدوه ويرون من النذالة التخلي عنمن لجأ إليهم.
٤- عشقهم للحرية، وإباؤهم للضيم والذل:

كان العربي بفطرتة يعشق الحرية، يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقاً لا سلطان لأحد
عليه، ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو يمس في شرفه وعرضه ولو كلفه ذلك حياته (٣)، فقد كانوا يأنفون
من الذل ويأبون الضيم والاستصغار والاحتقار، وإليك مثال على ذلك.
جلس عمرو بن هند ملك الحيرة لندمائه وسألهم: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه خدمة
أمي؟ قالوا: نعم، أم عمرو بن كلثوم الشاعر الصعلوك.

فدعا الملك عمرو بن كلثوم لزيارته، ودعا أمه لتزور أمه، وقد اتفق الملك مع أمه أن تقول لأم عمرو
بن كلثوم بعد الطعام: ناوليني الطبق الذي بجانبك، فلما جاءت قالت لها ذلك، فقالت: لتقم
صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها الكرة وألحت، فصاحت ليلي أم عمرو بن كلثوم: وا
ذلاه يا لتغلب.. فسمعها ابنها فاشتد به الغضب فرأى سيفاً للملك معلقاً بالرواق فتناوله وضرب
به رأس الملك عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، وانتهبوا ما في الرواق، ونظم قصيدة يخاطب بها
الملك قائلاً:

بأي مشيئة عمرو بن هند ... نكون لقيلكم (٤) فيما قطينا (٥)
بأي مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرين

تهددنا وتوعدنا رويداً ... متى كنا لأمك مقتونينا (١)

إذا ما الملك سام الناس خسقاً ... أبيتنا أن نقر الذل فينا (٢)

٥- الوفاء بالعهد وحيهم للصراحة والوضوح والصدق:

كانوا يأنفون من الكذب ويعيبونه، وكانوا أهل وفاء، ولهذا كانت الشهادة باللسان كافية للدخول
في الإسلام، ويدل على أنفتهم من الكذب قصة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم، وكانت الحروب بينهم قائمة قال: «لولا الحياء من أن يأتروا علي كذباً لكذبت
عنه» (٣).

أما وفاؤهم: فقد قال النعمان بن المنذر لكسرى في وفاء العرب: «وإن أحدهم يلحظ اللحظة
ويومئ الإيماء فهي ولث (٤) وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض
فيكون رهناً بدينه فلا يُغلق رهنه ولا تخف ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به، وعسى أن
يكون نائياً عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التي أصابته، أو تفنى قبيلته لما
أخفر من جواره، وأنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون

نفسه وأموالهم دون ماله»(٥).

والوفاء خلق متأصل بالعرب، فجاء الإسلام ووجهه الوجهة السليمة، فغلظ على من أوى محدثاً مهماً كانت منزلته وقرابته، قال صلى الله عليه وسلم: «لعن الله من أوى محدثاً»(٦).
ومن القصص الدالة على وفائهم

: «أن الحارث بن عباد قاد قبائل بكر لقتال تغلب وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث، وقال: (بؤ بشع نعل كليب) في حرب البسوس، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه، فقال دلي على مهلهل بن ربيعة وأخلي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك إن دلتك عليه، قال: نعم قال: فأنا هو، فجز ناصيته وتركه» وهذا وفاء نادرورجولة تستحق الإكبار(١). ومن وفائهم: أن النعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى لما منعه من تزويج ابنته فأودع أسلحته وحرمه إلى هاني بن مسعود الشيباني، ورحل إلى كسرى فبطش به، ثم أرسل إلى هاني يطلب منه ودائع النعمان، فأبى، فسير إليه كسرى جيشاً لقتاله فجمع هاني قومه آل بكر وخطب فيهم فقال: «يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من قدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد»(٢)، واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار، بسبب هذا الرجل الذي احتقر حياة الصغار والمهانة، ولم يبال بالموت في سبيل الوفاء بالعهد.
٦- الصبر على المكروه وقوة الاحتمال، والرضا باليسير:

كانوا يقومون من الأكل ويقولون: البطنة تذهب الفطنة، ويعيبون الرجل الأكل الجشع، قال شاعرهم:

إذا مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن ... بأعجلهم إذا أجشع القوم أعجل

وكانت لهم قدرة عجيبة على تحمل المكروه والصبر في الشدائد، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسير في حر الظهيرة، ولم يتأثروا بالحر ولا بالبرد، ولا وعورة الطريق، ولا بعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ، ولما دخلوا الإسلام ضربوا أمثلة رائعة في الصبر، والتحمل وكانوا يرضون باليسير، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفياً بتمرات يقيم بها صلبه، وقطرات من ماء يرطب بها كبده(١).
٧- قوة البدن وعظمة النفس:

واشتهروا بقوة أجسادهم مع عظمة النفس وقوة الروح، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانية صنعتا العجائب، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام. كما كانوا ينازلون أقرانهم وخصومهم، حتى إذا تمكنوا منهم عفوا عنهم وتركوهم، يأبون أن يجهزوا على الجرحى، وكانوا يرعون حقوق الجيرة، ولا سيما رعاية النساء والمحافظلة على العرض قال شاعرهم:
وأغض طرفي إن بدت لي جارتني ... حتى يوارى جارتني مأواها
وكانوا إذا استجار أحد الناس بهم أجاروه، وربما ضحوا بالنفس والولد والمال في سبيل ذلك. كانت هذه الفصائل والأخلاق الحميدة رصيذا ضخماً في نفوس العرب، فجاء الإسلام فنامها وقواها، ووجهها وجهة الخير والحق، فلا عجب إذا كانوا انطلقوا من الصحاري كما تنطلق الملائكة

الأطهار، فتحوا الأرض، وملئوها إيماناً بعد أن ملئت كفراً، وعدلاً بعد أن ملئت جوراً، وفضائل بعد أن عمتها الرذائل، وخيراً بعد أن طفحت شراً(٢).

هذه بعض أخلاق المجتمع الذي نشأ فيه الإنسان العربي فهو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختير له هذا المجتمع العربي، وهذه البيئة النادرة، وهذا الوسط الرفيع مقارنة بالفرس والروم والهنود واليونان، فلم يختر من الفرس على سعة علومهم ومعارفهم ولا من الهنود على عمق فلسفاتهم، ولا من الرومان على تفتنهم، ولا من اليونان على عبقرية شاعريتهم وخيالهم، وإنما اختير من هذه البيئة البكر: لأن هؤلاء الأقوام وإن كانوا على ما هم عليه وما هم فيه من علوم ومعارف، إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة، وحرية الضمير، وسمو الروح.

الواجب:

من خلال دراستك لواقع العالم الإسلامي. تحدثي عن أهمية الدعوة إلى الله تعالى في علاج الانحرافات الخطيرة على المجتمعات.

على الطالبة أن تختار أي ظاهرة خطيرة تراها تنتشر في مجتمعات مختلفة وتبين أهمية الدعوة لله تعالى في علاجها مستشهداً في ذلك بدور النبي ﷺ في تغيير المجتمع العربي الجاهلي إلى مجتمع متحضر له حضارة تاريخية.